

ماكس نوردאו

(١)

رأيه في مستقبل الأدب والفنون

أصبحت يوماً على ذكر ماكس نورداو ، وأكثر ما أذكره إذا جنحت نفسي إلى الرضى واستشعرت التفاؤل ، أو إذا برمت بهذر الأدعياء وسفسطائيتهم ، أو أكثرت من قراءة القصص ، فهو عندى دواء أجرح منه على قدر الحاجة ، وأكافح به وبأمثاله عدوى أساليب التفكير الشائعة ، وأدفع فتور النفس ، وليس ذلك لأنه من المتطيرين ، فإنه على نقيض ذلك يذهب إلى التفاؤل ويلج به الأمل على الرغم مما يشهر به وينعاه من الأنظمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية ، ومما يعرضه على قرائه من مظاهر الانحطاط والهستيريا فى الفنون والشعر والفلسفة . وهو ناقد بنشد الاصلاح بقوة البيان ، ومرارة اللسان ، ودقة التحليل ، ووضوح التدليل ، لا متسخط ممن يكلفون بدم كل ظواهر الوجود المعروفة ولا يرون الحياة إلا حالة سخيفة لا غاية لها ولا معنى فيها . غير أن تفاؤله هذا لا يعدى القراء ولا يكاد يتردد له فى جوانب النفس إلا صدى يذهب بأسرع مما جاء ولكن للكلام فى هذا أواناً لا نستعجله .

ذكرته فامتدت يدى إلى كتابه الذى طبق فيه نظرية موريل ولبروزو فى الانحطاط ، على المؤلفين ورجال الفنون ليصحح ما يأخذه الجمهور عن الكتاب والفنيين والشعراء من المثل العليا للجمال والآداب وفتح الكتاب من آخره فأخذت عيني قوله متكهنًا بالمستقبل البعيد للشعر والفنون :

« فى وسعى أن أثبت - أو على الأقل أن أظهر - أن الفنون والشعر لن تشغل إلا مكاناً ضئيلاً جداً فى الحياة العقلية للقرون البعيدة . ذلك أن علم النفس يقول لنا أن التطور طريقه من الغريزة إلى المعرفة ، ومن العاطفة إلى الموازنة والحكم ، ومن التفكك إلى الانتظام فى اتصال الخواطر . فيحل الالتفات محل العفو فى نشوء الفكرة ، وتأخذ الإرادة - يهديها العقل - مكان الهوى . وحينئذ يزداد تغلب الملاحظة على الخيال والرموز الفنية ، أى أن التفسيرات المغلوطة للوجود يعنى عليها فهمٌ قوانين الطبيعة . هذا ، وخلق يسير المدنية إلى الآن أن يعيننا على تقدير المصير الذى لعله مذكور للفنون والشعر فى المستقبل البعيد جداً . ذلك أن ما كان من أهم مشاغل الرجال الراشدين وأنضج أعضاء المجتمع وخيرهم وأحكمهم يصبح شيئاً فشيئاً ملهاة ثانوية حتى يعود آخر الأمر سلوك الأطفال ، فقد كان الرقص فى الزمن الغابر على أعظم جانب من الأهمية ... وليس هو اليوم إلا ملهى النساء والشبان وسيقتصر آخر الأمر على الأطفال . وكانت القصص الخرافية أسمى ما يخرج العقل الإنسانى وكانوا يضمونها أخفى حكمة القبيلة وأعلى تقاليدها ، وهى اليوم ضرب من الأدب لا يتخذ إلا للأطفال . وكان الشعر فى الأصل النوع الوحيد من الأدب فاقصر اليوم على تصوير العواطف وغلب النشر فى كل ما عدا ذلك . ونحن فى عصرنا هذا نرى الرواية تزداد انحطاطاً ولا يكاد أهل الجلد والتثقيف يرونها خليقة بالعناية ، ووقعها يزداد اختصاراً على النساء والشبان . ولنا أن نستخلص من هذه الأمثلة أن الفنون والشعر بعد بضعة قرون ستصير آثاراً بحثة لا يتخذها غير من تغلب عليهم العاطفة أى النساء والشبان ، بل الأطفال فيما يحتمل . »

قرأت هذا ثم طويت الكتاب ومضيت إلى عملى وجعلت أفكر فى الطريق فى هذا الذى يستشفه نوردانو من أشتار غيب الله المسدلة دون

المستقبل البعيد فخيّل إلى أن ما نقلته من كلامه يمثل موطن الضعف فيه وفى أمثاله من العلماء . لحاجة فى الاستقراء المنطقى ومبالغة فى التعويل على ما عرف إلى الآن من الحقائق العلمية وما ظهر من قوانين الطبيعة .

وظاهر أن الخطأ فى هذا التقدير مرجعه إلى أمور كثيرة . منها افتراضه أن الأدب لم يلحقه هذا التطور الذى وصفه وقال إن علم النفس يقرره ومنها اغفال العامل الإنسانى فى حسابه واسقاطه طبيعة الحياة البشرية من تقديره وإنه لمن دواعى العجب أن يغفى هذا العقل الكبير هذه الاغفأة فيحسب أن الحقائق لا تتعدى معامل الطبيعة والكيمياء وأن كل ما تخطى هذه الحدود انتقل الى عالم الوهم والهلوه الزائل . ومنها اعتباره الأدب والفنون سلوى وملهاة وما هى فى شىء من هذا ولا هى تتخذ لهواً إلا فى عصور الاضمحلال التى تعتري الأمم وإنما هى فى الصميم من الجد بأدق معانى الكلمة . وإنى لأعجز عن تصور الأدب والفنون كيف تكون لهواً زائلاً وسلوى يقطع بها الوقت ويقتل الفراغ . إذن فأنت تلهو إذا عشقت وإذا كرهت ، أو غضبت أو خفت ، أو راعك منظر فائن ، أو أفضلك خاطر مخامر أو هم باطن ، وهذا الذى تراه من ظواهر الطبيعة وتنوع لبومها فى الصباح والمساء وتحت نور الشمس وفى ضوء القمر وعند ركود الجو وهبوب الرياح وما تحسه من وقع الحوادث والشخصيات - كل هذا وهم وخدعة وأكذوبة وهذه الحياة بخيرها وشرها وسعودها ونحوسها باطل ومحال ولا حق إلا المعدة يرحمنا الله ، ولا جد الا مكرسكوب العلماء !

وعلى أن الناس عاشوا ومايزالون يعيشون بالطبع أكثر مما يعيشون بالعقل وحقائق العلم ، والحياة قائمة على طبيعة النفس والغرائز . وسبيل المدنية أن تجعل قياد الغرائز البشرية والعواطف الانسانية فى يدها وأن تتخذ منها

قوى دافعة تستخدمها لإنتاج ما ليس فى الغالب من الغايات الأولى لهذه
العواطف التى لولها لآض الانسان كتلة من اللحم والعظم لا خير فيها
ولا غناء عندها كما بين ذلك نوردوا نفسه فى كتاب آخر . ولا بد من تحرك
هذه العواطف تحركاً جدياً فى بادئ الأمر ليتنفع المجموع من الفرد . وأنت
قد تعلم أن العادات والأنظمة الاجتماعية ليست إلا أقتية ومسارب تتدفق
فيها العواطف لتنظم وينتفع بها ويتأتى تسخيرها . أليست عاطفة الحب
هى الأصل فى بقاء النوع عامة وفى نظام الزواج خاصة ؟ وعاطفة الرحمة
أليست هى مبعث هذا النظام الاجتماعى على ما فيه من مظاهر الأثرة والظلم
وقلة ما يبدو لتأمله من التعاطف الذى هو أصله ؟ ثم أليست الأنانية هى
أصل الوطنية ؟

والطبيعة البشرية ثابتة لا يلحقها نقصان ولا يطرأ عليها زيادة وهى مثل
الكاليدسكوب تدبر الكف قطع زجاجها الملون التى تمثل عواطفنا وأماننا
ومخاوفنا ومباهجنا ومطامحنا ونزعاتنا إلى الخير والشر وغير ذلك وتزواج
بينها وتشكلها أشكالاً مختلفة ولكن العناصر المكونة لها تبقى على حالها
وتبقى القطع الزجاجية لا يطرأ عليها نقص ولا زيادة .

والقوانين الطبيعية التى يقولون إن المستقبل سيكون قائماً عليها مبنياً
على فهمها كانت أبداً موجودة فعالة منذ كانت الدنيا . ومن ذا الذى يظن
أن هذه القوانين كانت غير موجودة أو معطلة قبل أن يهتدى إليها الباحثون
والمفكرون ؟ أكانت العوالم والأشياء متنافرة متدافعة قبل أن يوفق نيوتون
إلى نظرية التجاذب وقانونه ؟ أكانت العين لا تلتذذ ما تأخذ من الألوان
والأذن لا ترتاح إلى ما يرد عليها من الأنغام فلم تستشعر العين لذة الألوان
ولا الأذن حلاوة الألحان إلا بعد أن وقفنا على ما نشره « هلمهولتز »
و« بروكه » من نتائج بحثهما ، والأبعد أن قررا أن الاحساس بالألوان

والأنغام رهن بالنسب الحسائية والهندسية البسيطة أو المركبة بين حركات الأثير أو المادة ؟

وغير منكور ولا مردود أن العقل سبيله أن ينفى عن الشيء كل ما هو أجنبي منه ، وأن أبحاث العلماء قد صيرت أفق المدارك أوسع ، ومرامى الفكر أبعد ، ولا شك أن أهل النظر والاجتهاد المخلصين قد أحصوا وسجلوا واجتلبوا المنافع واستدروا المرافق ، غير أننا مع هذا - على قول شيللى - لا نعجز أن نتصور حال العالم لو أنهم لم يكونوا ولم يخلقوا ، أو لم يعيشوا ولم يحققوا - لا يُعينا أن نتخيل العالم خلواً من خطوط الحديد والمصانع على تعدد شكولها ، ومن المعارف العلمية والاقتصادية والسياسة ، ومن آراء الفلاسفة وعشاق الإنسانية . أليس كل ما كان يحذثه فقدان ذلك أن العالم كان يمضى فى هذره القديم وخلطه الأول وعنجهيته السابقة قرناً أو عدة قرون أخرى ؟ وإن عدداً من الرجال والنساء والأطفال كان يرمى بالكفر والالحاد والمروق ويحرق ؟ ولكنه من وراء الطاقة أن يتصور المرء حال الدنيا لو أن الشعراء لم يكونوا ، والفنيين لم يخلقوا ، ولم ينقل إلينا شعر العبرانيين ، ولم يستأنف الناس دراسة الأدب الاغريقى ، ولم يتغلغل فيهم شعر الأديان القديمة البائدة مع عقائدها . وبالجمله خلو العالم من كل أسباب الحياة . أكان عقل الإنسان يبعثه من رقاده شيء لولا هذه ؟ أكان يتاح له أن يحيط بما أحاط أو أن يخوض حيث خاض ؟

ومعلوم أن الآداب والفنون إنما أتت النفس أولاً من طريق الطباع والحواس ثم من جهة النظر والروية ، فهى أمسّ بقوانين الطبيعة رحماً وأقوى لديها ذمماً ، وأقدم لها صحبة ، وأكد عندها حرمة . وليس هذا الرقى إلا تطوراً فى الحق . والفرق بين حياة الإنسان فى عهده الحديث وبينها فى ما سلف ليس فى الكيف ولكن فى الكم ، وفى المقادير وليس فى الصفات الغريزية . هذه هى القضية المبرمة الثابتة . فإن قلت : فماذا عماسك تقول فى مخترعات العصر الحاضر وفى امتلاك الإنسان رق الطبيعة بها ؟

قلنا لك ليس من قصدنا أن تنتقصها ، وما ننكر ما لها من شرف المحل وجلال الخطر وعظم الأثر ، وإنما نروم أن نبين لك أنها لا تدل على ميزة اختص بها هذا العصر وانفرد ، واستأثر بها زمننا واستبد ، ذلك لأن الاختراع والاكتشاف إنما يؤدي إليهما النظر وحس الاستطلاع المركوزان فى الطبائع المركبان فى الجبلات ، وهما خاصتان فى الإنسان لم تزيلاه فى كل ما مر به من الأطوار وكر عليه من الأدوار ، ولئن اخترع اليوم الطائرة وكشف عن الكهرباء ، لقد اخترع قديماً المساكن والثياب وفطن إلى النار . فالخاصة الإنسانية والقدرة الطبيعية اللتان أفضتا إلى الاختراع والاكتشاف ثابتان لم يعدمهما الإنسان فى زمن من الأزمان وإنما الذى يقع عليه الاختلاف وتباين فيه العصور ، الأعداد والكميات وما كانت هذه لتكسب الإنسان الحديث مزية تحيله عن أصله وتخرجه عن فطرته .

وقد نسى نوردوا فيما قاله عن القصص الخرافية - أن الزمن إذا كان قد عفى عليها فلقد نشأت مكانها الروايات البسيكولوجية وشاعت على نحو لا نظير له فى ما مضى ، ولم ينبج من تأثيرها ولا قاومه حتى العلماء أمثال نوردوا نفسه الذى وضع عدة روايات وإن كان يقول إن أهل الجدد والثقافة لا يرونها حقيقة بالعناية !



دارت بنفسى هذه الخواطر . وما هى إلا ساعة وإذا بالبرق ينعى إلينا ماكس نوردوا ! فعجبت لهذا الاتفاق ولما كان عسى أن يقول فى مثله !

وكم فى الدنيا من أسرار وألغاز لم يستطع العلم أن يحلها !

وقد بدا لى أن أسوق هذه الخواطر فى مستهل الكلام عن نوردوا . وما يتسع مقال واحد لذلك ، فإن الرجل لم يدع باباً من أبواب النظر والبحث إلا طرقه ونفذ منه إلى مقالة حق ، ومذهب صدق .

(٢)

القوة الدافعة ومقاومة الجماهير نظرية الحاجة

قال ماكس نورداو فى كتاب « المتناقضات » :

« من حيل الكلاميين أن يقسموا الإنسانية إلى شطرين : رعية كبيرة وطائفة قليلة من الرعاة ، ولكن من الخطأ أن نقول إن بضعة عقول خاصة هى القوة الدافعة الوحيدة وأن تصور الجماهير كأنها العقبة المعترضة أبداً . ولا يسعنى إلا أن أعترف أنى ظلمت زمناً طويلاً أشاطر القائلين بهذا خطأهم ، وكنت أذهب إلى أن الجنس الأبيض كله يمكن أن يرد إلى مستوى العصور الوسطى ، بل إلى ما هو وراءها أو قبلها لو أن عشرة الآلاف الذين هم أمهر معاصرى وأذكاهم ، والذين يخيل إلينا أنهم عماد مدينتنا الوحيد ، فصلت رؤوسهم عن أجسادهم . غير إنى الآن لم أعد أعتقد هذا الرأى وذلك لأن أسمى صفات الإنسانية ليست ميراث الشواذ القليلين دون سواهم وإنما هى صفات أساسية موزعة على الناس جميعاً ، شأنها فى ذلك شأن الأعضاء والأنسجة واللحم ومادة الذهن والعظام ، ولا شك أن لبعض الأفراد نصيباً أوفر ولكن لكل فرد حظاً من هذه الصفات .. صور لنفسك طائفة من الأوساط العاديين ليس لهم مواهب عقلية خاصة أو معارف فنية غير ما يفيده المرء من مطالعة مقالات الصحف أو أحاديث المجالس ، وهبهم تحطمت بهم سفينة وقذف بهم الحظ إلى جزيرة جرداء . فماذا يكون مصيرهم ؟ لا شك أنهم فى بادئ الأمر يكونون أسوأ حالا من مستوحشى البحار الجنوبية إذ كانوا لم يتعودوا أن يستخدموا مواهبهم الطبيعية ولا يدرون أن فى الوسع أن يتناول المرء طعامه دون أن يقدمه إليه الخدم ، وإن الأغذية توجد فى حيث لا أسواق ، ولكن

هذه الحالة لا تطول ، وأخلق بهم أن يفتنوا إلى ما كان خافياً عليهم من نفوسهم وأن يوقفوا بعد ذلك إلى اختراعات مهمة ، فيظهر لهم أن لأحدهم مهارة فنية عظيمة ، وأن لآخر مواهب فلسفية ، وأن ثالثاً قد رُزق القدرة على التنظيم ، فلا يلبثون أن يعيدوا في خلال جيل أو جيلين تاريخ التقدم الإنساني كله ، ولما كانوا قد رأوا الآلات التجارية - وإن كانوا على الأرجح لا يعرفون على وجه الدقة كيف تركيبها - فسرعان ما يهديهم التفكير إلى أصل المسألة فيصنعون لأنفسهم آلة من هذا النوع .. وهكذا في غير ذلك ، فيصبح هؤلاء الأوساط صوراً مصغرة من نيوتن ووطسن وهلمهولتز ، وجراهام بلز لأنهم بين ظروف المدنية كانت تعوزهم تلك الفرصة التي أتاحتها لهم الجزيرة الجرداء .

ويقول نوردو في ذيل هذا « ولا أحتاج إلى عناء كبير لأعتقد أن في كل رجل عادي النضوج ، مواهب يمكن أن تجعله عاملاً كبيراً في تقدم المدنية ، وكل ما يحتاج إليه الأمر هو أن يضطر أن يصير كذلك . كما يمكن اتخاذ الجذور من أغصان الأشجار إذا دُلّيت وغرست رؤوسها في الأرض وأكرهت بهذه الطريقة على امتصاص الغذاء اللازم لها من الثرى » .

وبعبارة أخرى يقول نوردو : (١) إنه ليس ثم قوة دافعة من شواذ الأفراد وعقبة معترضة من كتلة الجماهير و (٢) إن الصفات الإنسانية يشترك فيها الناس جميعاً وإنما تتفاوت الأنصبة و (٣) إن الضرورة « مدعاة الجد ومبعث التفكير العميق وأم الاختراع » و (٤) إن تاريخ الرقي الإنساني خلقي أن يتكرر هنا على وجه مختزل وهذا هو مالا خلاف بيننا وبينه فيه . وفي كلامه فيما عدا هذا مواضع للنظر .

إذا صبح أن من الخطأ أن يذهب أحد إلى أن المتفوقين هم القوة الدافعة وأن الجماهير عقبة معترضة ، فليتصور القارئ حال الدنيا - دنيا الإنسان -

كيف تكون وأى رقى يحدث إذا لم يظهر فيها أناس يمتازون بجرأة أو أمل أو إرادة أو عقل ، أى بنصيب أوفر من نصيب الرجل العادى من المواهب والملكات والصفات الإنسانية كما يقول نوردאו . لا علماء يخدمون النوع بما يحصون ويقيدون ويستنبطون ، ولا أدباء أو فنيين يوقظون الحواس الراكدة ، والمشاعر الخاملة ، ويملأون الصدور ، ويحركون الطبيعة البشرية ، ويستثقلونها على نشدان الكمال والتماس تحقيق المثل العليا التى ينزعون إليها ، ولا يفتحون العيون ويوقظون القلوب على عظمة الجلال والأبد والحق ، ولا زعماء ولا قادة يغرون الناس بالمجد . ماذا تصير الحياة ؟ هشيماً يابساً ولاشك . وأخلق بالجنس الإنسانى إذن أن يعود كغيره من أجناس الحيوان . وأن يروح الآدميون ولا عمل لهم فى الحياة سوى الطعام والشراب والتناسل . لا يتميز بعضهم عن بعض إلا بضخامة الأجسام أو ضآلتها ، ومثانة العضلات أو رخاوتها ، وحدة الأنياب أو كلالها .

ثم ليتصور القارئ بعد هذا أن الجماهير الإنسانية لا تقاوم ولا تقف عقبة فى سبيل سعى ، ولا يحتاج الشواذ الأفذاذ أن يجروها ويعالجوها بمختلف الوسائل وشتى الأساليب لتبعمهم وتسايروهم ، بل تجيب كل مهيب ، وتعنتق كل جديد ، وتلبى كل دعوة . ونضرب مثلاً متطرفاً بعض التطرف لنعين القارئ على تصور الحال ولنحضر فى ذهنه مثال ما ندغوه إلى تخيله . فنقول إن الحجج فى الإسلام أشق قواعده والذى لا طاقة لكل امرئ به ومن أجل هذا لم يحتمه الشارع تحميماً لا مفر منه ولا معدى عنه بل فرضه على المطلق دون ظاهر العجز عنه . فهب رجلاً منا قام يدعو إلى دين هو كالإسلام فى كل ما دق وجل من أحكامه وأصوله وآدابه وأوامره ونواهيه ولا يختلف عنه إلا فى اسقاط الحجج وتخريمه على أتباعه . أتظن الناس يسرعون إلى الدخول فى هذا الذى ليس فيه من جديد

على الحقيقة والذي لا يختلف عن الإسلام إلا فى هذه القاعدة وحدها ؟
ولا تفيض فى المسألة بل ندع للقارئ إتمام هذه الصورة التى رسمنا له
معالمها الكبرى .

ولو أن الجماهير تبذل قيادها لكل مهيب بها لعاد المجتمع ريشة فى
مهب الرياح لا استقرار له ولا انتظام ، يساق ويدفع إلى كل ناحية ،
ويتقدم ويتأخر فى كل اتجاه . لأنه لا يكون فى هذه الحالة على الأفراد
المتأخرين إلا أن يفكروا ويريدوا ، ولا على جمهرة الناس إلا أن يترجموا
خواطهم إلى العمل ، ويخرجوا إرادتهم فى صورة محسوسة ملموسة كائنة
ما كانت هذه الفكرة أو الإرادة . ولا أدرى حينئذ لماذا يكبد الرجل الممتاز
ويتعب ذهنه ويكلفه التفكير ويعالج انضاج الرؤى وليس ما يدعوه إلى كل
ذلك والأمر لا يكلفه إلا أن يريد فيكون ما أراد ؟ ونوردو نفسه لا يخفى
عليه أن الأمر ليس كذلك . وهو يقول فى موضع آخر من كتاب التناقضات
الذى نأخذ منه اليوم ونسرد « وماذا غير ذلك مما يتهم به الرجل العادى ؟
إنه لا يبادر إلى التسليم أمام حملات الرجل العبقري ؟ ألا إن هذا هو
المطلوب ! ومن أجل هذا ينبغي أن يبارك الرجل العادى . فإن ثقله أو اتزانه
الوطيد الذى لا يسهل ازعاجه يجعله نوعاً من الجهاز الرياضى أو ضرباً
من الأثقال إذا عالجه الرجل الممتاز استطاع أن يختبر قوته وأن يضاعف
كذلك مثته . ولا شك أن من أشق الأمور ابتعاث الأوساط على الحركة
ولكن معالجة هذا تدريباً نافع فلا يزال يعرب حتى يفوز بالنجاح » .

وهذا صحيح فإن المقاومة التى يلقاها الجديد هى التى تكشف عن
مزيته وتظهر فضله . وهى كذلك الضامن أن لا ينجح إلا الأصالح والذى
أوتى القوة الكافية ورزق النصيب اللازم من ملاءمة الاستعداد له ، وقد
لا يفوز الأفضل . لأن الصلاح والملاءمة ، لا الفضل ، شرط النجاح .

وليس على القارئ ليدرك مبلغ المقاومة التى تبذلها كتلة الجماهير إلا أن يفكر فى ببطء التغير الذى يلحق الأنظمة من معاشية وحكومية وقانونية ، وكيف أن فيها الكثير من المسخطات ومن يواعث الألم والكرب والضييق ، وكيف أن المرء مهما كان رأيته فى العرف الذى ألفه الخلق ، ومبلغ استقلاله واعتداده بنفسه ، لا يسهه على هذا إلا النزول على حكم الجماعة فى كثير من العادات . وما الذى يصون القانون ؟ أهو قوة الحكومة أم رأى العام أى قوة العادة والعرف ؟ والقانون نفسه ماذا هو إن لم يكن رأى الجماعة فى صورة أوامر ونواه ؟ والأنظمة الديمقراطية أليست مظهرًا من مظاهر نزوع الجماعة إلى مقاومة الفرد الذى تحدته نفسه بتسييرها كما يشاء ؟ وتأمل كيف كانوا فى الأزمنة السالفة يحرقون أهل الابتداع ويحتشدون حولهم آفاقًا مؤلفة وهم يشتتون ! لا شك أن الجهل له دخل كبير فى هذا ولكن ذلك لا يحيل المسألة عن أصلها .

وأرى نوردوا وقد تابع القدماء وحكاكهم فى اعتبار الحاجة أم كل اختراع ، والضرورة مبعث الفكر ومدعاة الجد ، وقديمًا صورها اليونانيون أم الحظوظ وزوجة «دميورجاس» - صائغ العالم ومكيهه - وأم القدر كذلك ، وجعلوا سلطانها الأعلى ، وسطوتها التى لا ترد ولا تدفع وجعلوا بأسها فوق بأس الآلهة أنفسهم ، وعزوا إليها حروب العمالقة التى دارت أرحاءها بينهم فى قديم الزمان قبل أن يلى «الحب» حكم العالم. ومثلوا الأرض تدور حول مغزها الذى فى حجرها. وكان المصريون القدماء يعدونها أحد أرباب أربعة يحضرون مولد كل آدمى ، والثلاثة الآخرون هم الروح الحارس والحظ وايروس - وكان للضرورة أو الحاجة فى قلعة كورنثة معبد يشاطرها «العنف» إياه ، ولا يؤذن لأحد أن يلجه . وقد وصفها هوراس فى إحدى

قصائده بأنها « رائد الحظ ورفيقه » وأنها تحمل في كفها النحاسية مسامير هائلة ورصاصاً مصهوراً ، رمزاً لقوة الشكيمة والثبات .

وإنها لذلك إلى حد لا سبيل إلى المبالغة في بعد مداه ، ولكن من الاغراق في رأينا أن نزعما أصل كل اختراع ، وسبب كل اكتشاف ، وسر كل فكر ، ووحى كل عمل . ولا شك أن الإنسان أحس الحاجة إلى ما يقيه الحر والبرد فاتخذ الثياب ، واضطر إلى المساكن فبناها وأراد التحصن والوقاية فشادها طبقات وأحاطها بالأسوار . واحتاج إلى ما يعجز الحيوان عن الفرار ويقعده عن الكر على مطاردته فاخترع السهام واستعملها ضد خصومه وعدائه ، ولا ريب كذلك في أن الحاجات الجوهرية التي تعين ضعف الإنسان على مقاومة الطبيعة ، أو تجعل الاحتفاظ بالنفس أسهل ، أنت الإنسان بدافع من الضرورة . ولكن من الغلو أو من السهو أن نضع القدماء في مواضعنا وأن نتصور أن حاجاتهم هي عين ما نحس الآن من الحاجات . وأن نقيس حياتهم على حياتنا . فالنار مثلاً لا غنى للإنسان عنها والحياة بدونها لا ندرى كيف تدوم . وعلى أنها جوهرية في حياتنا لا نطن أن الحاجة هي التي أغرت الإنسان القديم بالتماسها والتفكير فيها حتى اهتدى إليها . نعم أنه كان لا بد له من نشيدان الدفء بشكل من الأشكال - بالثياب والمساكن والعدو والوثب ، والحركة على العموم ، ولكن اهتدائه إلى قدح النار كان محض اتفاق لا عمد فيه ، وإن كان بعد أن عرف ذلك رقاؤه وهذب طرقه . وهو ما يمكن أن يقال حتى عن المساكن والثياب . وكان الإنسان يأكل اللحم نيئاً كالحيوان ولا نخسبه شعر إلحاح الحاجة إلى الشيء فشوى طعامه وطهاه . بل جاء ذلك وما هو إليه اتفاقاً . وتأمل في عقب هذا ، الاختراعات والاكتشافات الحديثة التي يفتح بعضها بعضاً ، والتي يكون من المبالغة ولا شك أن نزعم الإنسان حتى في حاضره الحافل تلج فيه الحاجة إلى نشداتها .

وعلى أنه ينبغي أن نميز بين حاجة الجماهير وحاجة الأفراد الممتازين

الذين لا يجتزؤون بالواقع ولا يقنعون بالحاضر والذين تسبق عقولهم ومطالب نفوسهم ، عصورهم . هؤلاء هم أول من يشعر بالنقص ويضيق الضرورة وثقل وطأة الحاجة ، وهم الذين يبنهون الجماهير إلى ذلك ويشعرونها ما يعوزهم ، ولا يزالون بها حتى يتنبه في نفوسها مثل إحساسهم فطلب ما يطلبون . وقد مرت بالأهم عصور ركود كثيرة انقطع فيها مدد العظماء والممتازين فبقيت الجماهير حيث خلفها آخرهم ، ولبت على هذه الحالة الشبيهة بالجمود حتى تداركها الله . وقلما ينجح أول ممتاز يظهر كل النجاح ، وحسبه من الفوز أن يقطع حجراً أو اثنين من جبل هذا الجمود ، ثم يأتي بعده من يواصل عمله ويتقدم خطوة أو خطوات أخرى في التمهيد وفي زحزحة كتلة الإنسانية وفتح عيونها المغمضة ، أو المفتوحة كالمغمضة ، وفي تنبيه مشاعرها وإذكاء نار الحياة فيها . وهكذا حتى تنهض القرصة للمجدود من الممتازين فيلغى كل شيء حاضراً مهياً لظهوره . ولو إنه كان في وسع الجماعة المؤلفة من الأوساط أن تستغنى بحظها من الصفات الإنسانية الأساسية ، وأن يضطرها عدم وجود الممتازين إلى استخدام ما لها من مواهب ، وانضاج ما رزقت من قدرة وملكات ، لما بدت في التاريخ هذه الفترات ، فترات الركود والكلال والجزر ، التي تطول أحياناً عدة قرون حتى تتاح قوة دافعة ممن يظهرون بعد ذلك من الممتازين والنوابغ والعظماء . على أن باب التخريج والتفسير هنا واسع ، ومجال الجدل الكلامي رحيب ، وهو يمتد إلى غير غاية ، ولكن الذي لا يسعنا أن نومن به هو أن الحاجة وحدها هي أصل كل رقى ، وأن العظماء ليسوا قوة دافعة تلقى البرح والعتن من نزعة الجماهير إلى الاحتفاظ بالقديم ، وأن الإنسان كائنات يمكن أن يُفسر قسراً ، والمثل الذي ضربه نوردادو خلاص ، ولكن عيب غيره من الأمثال المنقولة من دائرة إلى أخرى ، ولا يخفى أن الحيوان والنبات مختلفان ، وإن اشتركا في صفة الحياة وفي كثير من مظاهرها .

ويرى القارئ من البند التي أوردناها من كلام نوردادو أن له

« متناقضات » ! فبينما هو ينفى مقاومة الجماهير إذا به فى موضع آخر من الكتاب عينه يعترف بهذه المقاومة ويعللها ويذكر نفعها ، وكأننا به يعتز بقدرته على نصر الموقف الذى يقفه ، ويسحره بيانه وتفتنه خلافة منطقته وقوة حجته ، فيمضى إلى أبعد من المدى ، ويسوقه تيار علمه ومقدرته إلى حيث ينأى عن موقفه قبل صفحات . ولعله بعدُ معذور ، فإن وجوه النظر كثيرة وللحياة أكثر من صفحة واحدة .